أولا. مظاهر ما قبل الأسلوبية:

إذا ما أردنا تتبع مظاهر ما قبل الأسلوبية، توجب علينا ولوج عالم البلاغة، التي هي- في أبسط تعريف لها- فن تأليف الخطاب أو تقنية لغوية تستخدم في تقويم الأعمال الأدبية ، تعتبر في الوقت ذاته ، " ضابطا لغويا لقواعد التعبير الأدبي ، و أداة نقدية"[1] ؛ إنها مجموع طرق الأسلوب التي تشكل موضوع دراسة خاصة تنطوي تحت لواء البلاغة، بعدّها العلم الذي يسعى لتحديد مجموع الإمكانات والقواعد المتاحة للتعبير"، و قد ظهر – لأهميته البالغة – علما في مختلف الأمم والحضارات .

و قد كانت البلاغة – عند اليونان – عبارة عن فن يستخدم لتأليف خطاب يلقى على خشبة المسرح ، و لقد أبدعت العبقرية الهندسية اليونانية نظرية في الفصاحة ، و ذلك بتحليل دقيق لنظام القضايا و شروط التعبير مثل (طبيعة السبب ، و تشكيلات المستمعين ، و الأثر المطلوب ، و مصادر التعبيرات للغة) [2]، و قد أوجبت على كبار الخطباء التزام قواعد و أنماط الفترة الكلاسيكية؛ باعتبارها العلم الذي كان في خدمة " فن الكلام"(فن الكلام هنا هو ما عرف بفن الخطابة – عند أرسطو)؛ إذ يعنى بالبحث عن أقوم السبل اللغوية، و الصور البلاغية التي تليق بالخطيب أولا ، و بالأديب ثانيا ، و أن يتبعها ليتفوق في عمله . [3]

وعليه، أصبحت البلاغة وانطلاقا من تسخيرها لخدمة فن الخطابة – تمد الخطيب بالأساليب الكلامية المؤثرة في السامع والمقنعة له ؛ و خير ممثل لها أرسطو بكتابه فن الشعر (poétique) و الخطابة (la rfétorique) ؛ ففي كتاب "فن الشعر" أولى أرسطو الاهتمام بمظاهر الأسلوب في الكتابة الأدبية ؛ حيث أدرك الشعراء أن الإبداع الشعري لا بد أن يتميز في لغته عن الكلام المبتذل ، ليكون أكثر تأثيرا و هكذا تولد منذ تلك العهود مفهوم التجاوز و التجوز .[4] و بنفس القدر كان الاهتمام بفن الخطابة ؛ فالبلاغة – عنده هي فن الإقناع ، فن تأليف الخطاب (أو فن الكتابة)؛ وعلى هذا الأساس احتوت البلاغة – في العهد اليوناني على أقسام أربعة و ذلك ما ظهر في الكتابات الرائعة لأرسطو و شيشرون (chichronos) و كافتيليان (kaftilianos) و هي :

1- الابتداع : أو البحث عن البراهين و الحجج لتطويرها .

2- الترتيب: أو البحث عن النظام الذي يجب أن تكون هذه الحجج منتظمة فيه .

3- التعبير : أو طريقة العرض، و ذلك بالشكل الأكثر وضوحا و إدهاشا ، على أن تكون هذه الحجج أو البراهين منفصلة في إنشائها .

4- الفعل : الذي يعالج القصد في سرعة النطق ، و الحركات و تغيرات الملامح . [5]

و طبق هذا التحليل للإنتاج الأدبي بمختلف أنماط التعبير و الكتابة ، تميزت الأجناس: المسرح ، التاريخ ، الشعر...، وهي من أهم الملامح الأسلوبية في بلاغتهم، مع فكرة الأساليب، و الصور.

1- نظرية الأجناس :

تناولت مقالات لا حصر لها و لا عدد هذه النظرية التي نجدها مشتقة من شعرية أرسطو- إلى حدّ ما- ومن "الفن الشعري" لهوراس" ؛ لذا أصبح مفهوم الجنس قاعدة لكل الأدب فتكاثرت الأنواع و تعمقت ؟ فكان المسرح الفني الأسطوري ، و الأدب الجديد (الأدب المسيحي)، و الشعر الغنائي الذي تطور بفضل الشعراء الجوالين، حيث تجدد الجنس وأعطانا القصائد ذات الشكل الثابت ، و الفنون الشعرية التي ظهرت بدءا من القرن الثاني عشر (ق 12) و تضاعفت بفضل علماء البلاغة في القرن الخامس عشر (ق 15) ، و بذلك تفتحت الأبواب على ثروة هائلة من القوافي، و البنى الإيقاعية و القواعد المتغيرة[6]؛ لتكون هذه الأشكال في الوقت نفسه أجناسا تستخدم أدوات خاصة للتعبير عن الأفكار والمشاعر والمواقف المحددة . و على الرغم من التنوع والتطور يمكن تمييز خمسة أجناس شعرية و أربعة نثرية، داخل كل فئة تقسيمات لا تنتهي ، يحددها التقديم ومعايير التوظيف والتفاعل ، وهدف الاستعمال .أما الأجناس الشعرية فتتمثل في:

1- **الجنس الغنائي**: و هو تعبير حاد يصور المشاعر، و يحتوي على قصائد: الرثاء، قصيدة الأعراس ، القصيدة التاريخية ، القطعة الشعرية ... الخ.

2- **الجنس الأسطوري** : و هو عبارة عن قصة شعرية تروي مغامرات بطولية(الملحمة) .

3- **الجنس الإرشادي** : يعلم حقائق أخلاقية أو مادية ، و من أشكاله الخرافة و السخرية و الرسالة الشعرية .
4- **الجنس الريفي** : و هو عبارة عن رسم درامي لأخلاق الريف و جماليته .
5- **الجنس الدرامي** : و هو تمثيل للحياة من خلال الأفعال.

و أما الأجناس النثرية ، فتتمثل في :

1- **الجنس الخطابي** : و يضم عددا من الأشكال الخطابية كالبرهان أو القضاء مثلا .
2- **الجنس التاريخي** : و هو عبارة عن قصة حقيقية، و يقوم على تقويم الوقائع الهامة، التي تكون حياة أمة من الأمم مثل كتب المذكرات و الحوادث .
3- **الجنس الإرشادي النثري** : و موضوعه تعليم مختلف المعارف الإنسانية مثل الفلسفة و النقد .
4- **الجنس الروائي** : و هو عبارة عن قصة لبعض المغامرات، و قد يكون خياليا أو حقيقيا، ومن أشكاله الرواية الريفية، رواية التحليل، رواية المغامرات و القصة [7].

إن أهمية هذه التصنيفات لا تكمن في التصنيفات ذاتها، ذلك لأن لكل موضوع إطاره الشكلي و قواعده الخاصة : بنى و أسلوبا ، و على الكاتب والملتقى أن يتقبلا ذلك، وهذا ما أكدته و تؤكده البلاغة؛ إذ تستند عملية إعادة بناء البلاغة باعتبارها منهجا لتحليل النصوص على مبررين: المبرر الأول ذو طبيعة تاريخية، فهناك أمر أكيد، وهو أنه على طول تاريخ وجود نظرية بلاغية فإن نصوصا مختلفة (خطابات، مواعظ، ورسائل، وأشعار....الخ) تنتج حسب قواعدها فإذا ما استعملنا بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنساهم في كشف تركيبها الشكلي القصدي، فما كان متصورا عن طريق الفكر والتعابير المعيارية أمكن إدراكه اليوم بفضل الوصف العلمي وإن وظيفة المنهج البلاغي المطبق بهذا الشكل تكمن في إعادة البناء أنها تجد موقعها في الهرمينوطيقا التاريخية[8].

والمبرر الثاني ذو طبيعة جوهرية ومنهاجية؛ فقد أظهر النسق البلاغي عبر قرون قابلية الاستمرار بل ومرونة تسمح بالتمادي في تطبيقه على نصوص جديدة، ونتيجة لذلك ظهرت أنساق بلاغية فرعية مثل بلاغة أدب الترسل والمواعظ والشعرية البلاغية، وقد أوحت هذه الحالة بإمكانية تطبيق البلاغة على جميع النصوص الممكنة.

إن تصورا للبلاغة من القبيل يتضمن أمرين: أولهما ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا، لا للدراسة النصوص الأدبية وحدها، بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها، وثانيهما الفكرة المتضمّنة في أن كل نص هو بشكل ما " بلاغة" ، أي أنّه يمتلك وظيفة تأثيرية، وبهذا الاعتبار فالبلاغة تمثل منهجا للفهم النصي ومرجعه التأثير، وعندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية فإننا ننظر، مبدئيا، إلى النص من زاوية نظر المستمع/ القارئ ونجعله تابعة لمقصدية الأثر؛ ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل ملتقى الخطاب المقام الأول بدون منازع[9].

2- الأساليب:

لا يختلف مفهوم الجنس عن مفهوم الأسلوب، فكل جنس يتناسب مع طرق للتعبير ضرورية ومحددة بدقة ؛ فهي لا تعين له التركيب فقط ، بل تعين له كذلك المفردات والنحو والصور والمحسنات أيضا، و قد ميز القدماء بين ثلاثة أنواع من الأساليب :

البسيط ، المعتدل ، و العالي (حسب دولاب فرجيل)؛ حيث تشير حلقات هذا الدولاب إلى الوضع الاجتماعي ، الذي يتناسب مع كل أسلوب من هذه الأساليب الثلاثة ، كما تشير إلى الأسماء والحيوانات والأدوات و المساكن والنباتات التي تصلح أن تنسب لها؛ لأن الكلمات تحتفظ بانعكاسات الأشياء التي تشير إليها، أو بالأوساط التي تستعملها، و هي مبادئ كان بإمكانها أن تجدد البلاغة، و تلبسها ثوبا يتلألأ حداثة و لو اتبعت بالدراسة والتحليل، ولكنها لم تتابع – ماعدا نظرية الأساليب الثلاثة – التي انتقلت عبر العصر الوسيط حتى بداية

القرن التاسع عشر (ق 19)، والتي ساهمت في تقنين البلاغة، وضبط نماذج مثالية لها – تعتمد في النقد الأدبي وتختلف باختلاف الأغراض الشعرية والنثرية ، وهي معروفة لدى الأدباء ، و من ثمة هم مطالبون بالامتثال لها[10]:

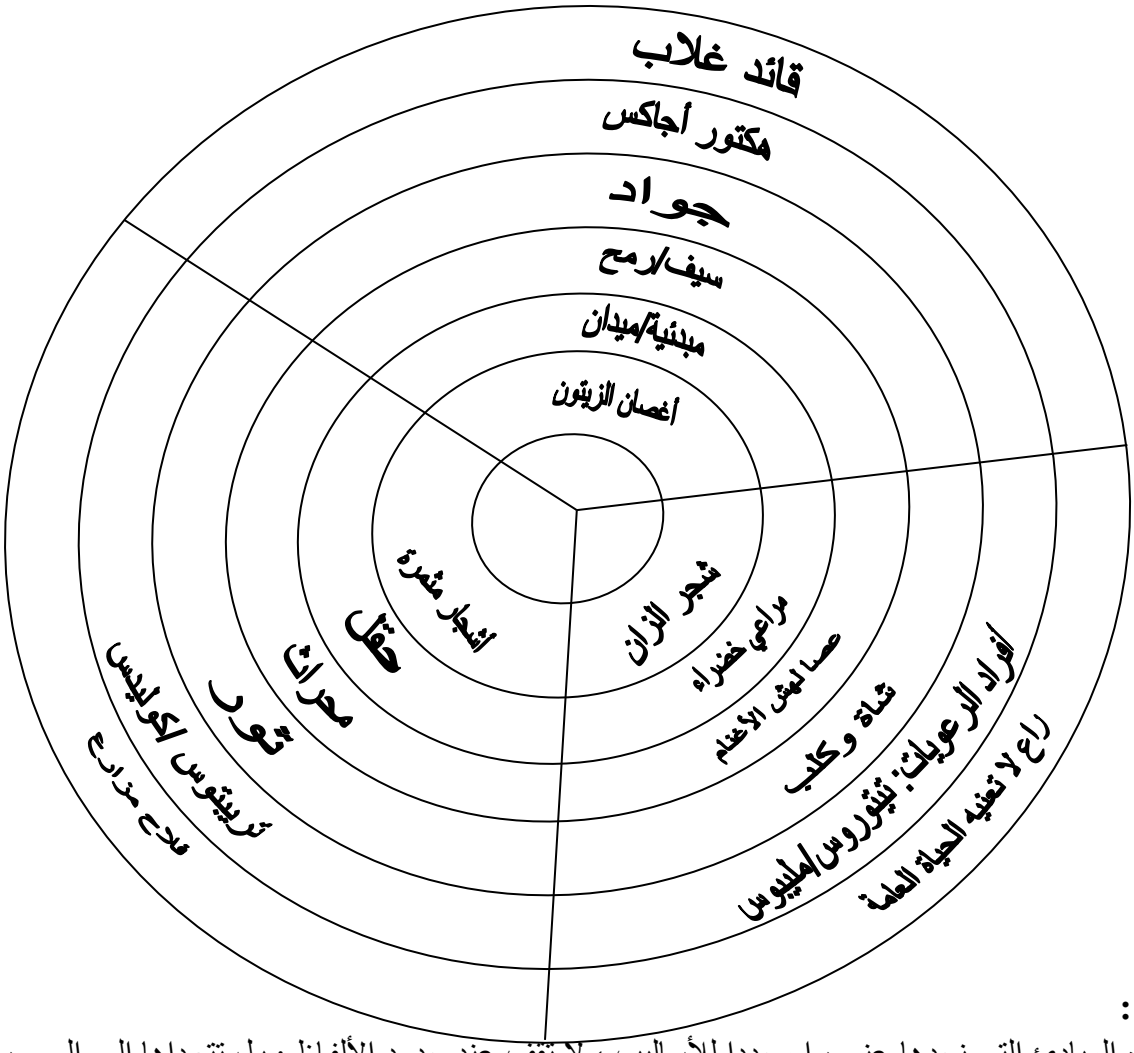

3-الصور :

و هذه المبادئ التي نجدها عنصرا محددا للأساليب ، لا تقف عند حدود الألفاظ : بل تتعداها إلى الصور، فالبلاغة تترك للقواعد أمر تحديد المعنى و تصحيح مختلف البنى القاعدية، وتأخذ منها ماله قيمة جمالية أو تعبيرية خاصة، وتشير كلمة الصورة في البلاغة إلى "طريقة في الكلام أكثر حيوية من الكلام العادي، وأكثر مقدرة إما إلى جعل الفكرة أكثر حساسية بوساطة صورة من الصور، و مقارنة من المقارنات ، وإما لإثارة الأشياء أكثر بما لها من استقامة أو فرادة "[11] وهو تعريف غامض.

أما صور التركيب فتتصل بالنحو كنظام الكلمات مثلا , وأهمها : الإضمار، حذف الصور، التطابق المعنوي ، الإسهاب، الوصل، القطع ، الأمانة ، التكرار.. الخ ، أما التقديم والتأخير-عندهم- فليس شيء آخر سوى صورة من صور القلب (تأخير اللفظ وتقديمه خلافا للقاعدة).

وتتصل صورة الكلمات أو المجازات اللفظية كتغيرات، المعنى، ونضرب لذلك مثلا "الاستعارة" لأنها أكثر شهرة وأما المجاز المرسل فيشتمل على إرادة أخذ الجزء مكان الكل ، كأخذ الشراع مكان السفينة ، وأما الكناية فتأخذ الشكل مكان المضمون مثل : كأس من الخمر، وهذه الصور هي التي ستأخذ موقعها كصور شعرية تجسد الانزياح الدلالي التصويري في الأسلوبية المعاصرة.

وأهم المجازات اللفظية-في بلاغة القدامى: الاستعارة ، المجاز الصوري ، التلميح ، السخرية ، التهكم، المجاز المرسل، الكناية، التورية، وغيرها ، وتبقى الصور الفكرية تشكل الأفكار نفسها؛ فالمغالاة مبالغة من المرء بفكره على حد تعبير بيار غيرو .

وفي الأخير، ما هي البلاغة؟ البلاغة فن، والفن يعني هنا الصنعة؛ إن نتاج هذه الصنعة أمر مدبر أي أنه لا يرجع إلى الطبيعة وصدفها بل هو نتاج العقلانية المنهجية الإنسانية وبعبارة أخرى: البلاغة منهج يمس خاصية ملازمة للإنسان هي الكلام، وبصفتها منهجا فإنها تتميز بمجموعة من القواعد؛ هذه القواعد ليست مرصوفة بطريقة تعسفية، بل لقد ربط بينها من زوايا نظر قائمة على أساس منطقي.

وتكوّن هذه القواعد في مجموعها بناء معقدا يتكون هيكله من التبعية والمشابهة والتحديد، ونستخلص من ذلك أن البلاغة طبيعية نسقية، ومع أن هذا النسق بقي عبر 2500 سنة من عمره غير كامل، وتعرض لتغيرات متوالية فإن وظيفته الأولى بقيت مع ذلك واحدة وهي إنتاج نصوص حسب قواعد فن معين، أما المفهوم العلمي الحديث للبلاغة فإنه مخالف لذلك، بل إنه عكس المفهوم السابق، إذ لم يعد الهدف الأول للبلاغة العلمية هو إنتاج النصوص بل تحليلها[12].

وصفوة القول أن نشير إلى أهمية البلاغة البالغة، كونها لا تعكس مفهومها عن اللغة والأدب، بل تعكس فلسفة وثقافة ومثالا عقليا أعلى[13]. فالدراسات البلاغية تحتفظ بمكانها كاملا في النقد الأدبي الأوربي؛ لذلك كانت البلاغة ركنا أصيلا في تكوين الأديب بل الإنسان المثقف بوجه عام، كما كانت وسيلة متزايدة الأهمية في الإبداع الأدبي ، ومعيارا مطلقا ووحيدا لتقدير الجمال الفني، وأمام كل ما أفرزته هذه البلاغة، اعتبر المحدثون أن تلك النظريات والمبادئ البلاغية قيد يحد من الإبداع ؛ يخضعهم لشروط وقوانين إلى جانب مآخذ أخرى

عديدة جعلتهم يخلصون إلى أن البلاغة علم لغوي قديم ينظر إلى اللغة على أنها شيء ثابت ، في حين أن العلوم اللغوية الحديثة تسجل ما يطرأ على اللغة من تغير وتطور ،هذا مما أدى إلى بروز علم جديد من عباءة اللسانيات[14]. واستواؤه علما متميزا ذا مناهج خاصة وتوجهات معينة (تنظيرا وإنجازا) سمي ب(stylistique) الأسلوبية.

الأمر الذي يتجلى في قول هنريش بليث:"إن البلاغة قد صارت علما، وأننا نهدف من جهة ثانية إلى نظرية بلاغية، وأن البلاغة من جهة ثالثة، ليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم، بل تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، وإن راوّد هذه البلاغة الجديدة في فرنسا هم رولان بارت وجيرار جنيت و كونتز وكبدي فاركا ومجموعة Mu بلييج وبيرلمان وتودوروف، فلقد استطاع هؤلاء الباحثون وباحثون آخرون كثيرون في بلاد أخرى أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا"[15].

الإحالات:

[1] - بيار غيرو ، الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، دار الإنماء القومي، بيروت، ص09.

[2] - بيار جيرو ، المرجع نفسه ، ص 10.

[3] - الهادي الجطلاوي ، مدخل إلى الأسلوبية، تنظيرا وإنجازا، دار عيون، الدار البيضاء ، ط1، 1992، ص15

[4] - المرجع عينه ، ص 16.

[5] - بيار جيرو ، المرجع نفسه ، ص10.

[6] - ينظر : بيار جيرو ، الأسلوب والأسلوبية ، ص 11.

[7] - المرجع عينه ، ص 12.

[8] - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص" ترجمة وتعليق: محمد العمري، افريقيا الشرق، المغرب،1999، ص 24..

[9] - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، ص 24.

* فرجيل : شاعر وفيلسوف روماني ، اشتهر بالإنياذة ، التي قام بنظمها وفق ما قدمته " إلياذة هوميروس " ، كما اشتهر بدولابه الشهير في ظبط أساليب ذلك العصر والعصر اليوناني .

[10] بيار جيرو ، المرجع نفسه ، ص 13.

[11] - الهادي الجطلاوي ، مدخل إلى الأسلوبية ، ص 16.

[12] - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، ص 23.

[13] - بيار جيرو ، المرجع نفسه ، ص 15- 17 .

[14] - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عربية، الأهلية للكتاب، الأردن، ط1، 1999، ص169-170.

[15] - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، ص 23.